وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر باتنة 1
كلية العلوم الإسلامية ـ قسم أصول الدين
مخبر العلوم الاسلامية في الجزائر
فرقة البحث PRFU: النزعة الروحية في الأديان ودروها في إرساء قيم التعايش والسلام العالمي ونبذ التطرف والغلو
الندوة الوطنية:

البُعد الإنساني في الفكر الصوفي ودوره في نشر الإسلام

عنوان المداخلة:

المحبة وأبعادها الإنسانية في التراث الصوفي

د. باي أحمد عامر، أستاذ محاضر أ ـ تخصص عقيدة-
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية ـ كلية العلوم الإسلامية
جامعة الوادي – الجزائر
الهاتف: 0668797951 - البريد الإلكتروني: beyahmedameur@gmail.com

الملخص:

يرسم التصوف الإسلامي أفقا استيعابيا واسعا؛ وفهما عميقا مؤسسا على رؤية كونية شاملة، يتخذها الصوفية مسارا ومنطلقات لتحقيق الإنسان لذاته، والغاية من وجوده، والسير به إلى أقصى درجات الكمال البشري الميسور.

ومن أبرز المقاصد والغايات عند الصوفي أن يتحقق بمقامات المحبة الإلهية، وأن يسلك فيها كل مسلك يبلغه الفناء عن ذاته في محبوبه، وفي هذه المداخلة؛ يحاول الباحث الوقوف عند مفهوم المحبة ومقوماتها، وبيان سبيل الصوفي إلى تحقيقها، ومن ثم الوقوف عند أبرز أبعادها على الإنسانية.

تمهيد:

تعتبر المحبة الإلهية عند الصوفية منطلقا مهما وغاية سامية، ذلك أنه أساس من جملة مقومات الرؤية الكونية، ففي ظل المحبة فُسِّر الوجود، ومن ثمارها اكتسبت الممكنات آثار التجلي لأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى في الكائنات، فعمت في وجودها كل مخلوق، ونال كل منها حظه، حتى غدت حاضرة في مختلف العلاقات، فما أحب في الحقيقة مخلوق إلا خالقه، وما جمل في رؤيته إلا مجلى جماله وكماله، وما استحسن واستنعم شيئا إلا إحسانه ونعمه على مخلوقته.

وقد كانت المحبة حاضرة عند الصوفية منذ البدايات، وكان بناؤها منذ زمن الحسن البصري على الزهد في الدنيا، والخوف من المعصية المؤدية إلى البعد عن مواطن الرضوان من جهة؛ والرغبة في الطاعة والطمع والشوق إلى ثواب الجنة وأعلى درجات نعيمها برؤية الخالق Y.

حتى استنار أفق حياة الصوفية بالزاهدة العاشقة؛ ربعة العدوية ، والتي كان لها الدور في نقل المحبة من النظر في النعم إلى المنعم، ومن الأمل في الكون إلى المكون، فشمل زهدها واستغناؤها نعم الدنيا والآخرة، وطغى عشقها على خوفها من النار، والتفتت إلى الاستمتاع بجمال الحق الأزلي، والطمع في النظر إليه، وطرق باب الكرامة بحال الشهود الدائم إليه، فكان لها فضل السبق في استعمال مفردات الحب والعشق من غير تردد، حتى انتشر استعمالها بين أهل الطريق[1].

وصارت المحبة الإلهية من بعد رابعة المحور الذي تدور عليه الحياة الصوفية والهدف الذي تتجه إليه، وظهر في القرن الثالث خاصةً رجال عرفوا بنظريات فيها، منهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، و الجنيد، ويحيى بن معاذ الرازي ،وسَرِيُّ السقطي، وذو النون المصري، وسهل بن عبد الله التُّسْتَري، وسمنون بن حمزة، وأبو بكر الشبلي، وغيرهم"[2]، وكلهم متفق أن محبة الله مطمع آمال السالكين، وخير طريق مؤدية إليه، وإن اختلفوا في معنى المحبة وحدودها، وتصوير العلاقة بين المحب والمحبوب وأثرها في الأخلاق الصوفية بوجه عام[3].

ومبنى هذا التطور هو الانتقال من النظر إلى تجليات الإرادة المطلقة لله تعالى في الكون، والتركيز على آثار الجمال والكمال المطلق البارز في أنحاء الوجود، فالكون أثر لعظمة الخالق، وهو فوق ذلك مرآة ينعكس في صفحاتها الجمال الإلهي، وينبت على جنبات قلوب القاصدين الصادقين حبه، الذي يقود العبد إلى التعبد به، والاستئناس والاطمئنان إلى قربه، والتذوق لجماله في كل ما ظهر في الوجود من آثاره[4].

والمحبة عند الصوفية أمر مشروع محمود، وحال ذوقي محقق كسائر أحوال الصوفية التي لا تدرك إلا ذوقا، وهي كما قال القشيري عن محبة العبد لله: " حالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تحمل تلك الحالة على التعظيم لله وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه، وعدم القرار دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره"[5].

1- سعاد الحكيم، المعجم الفلسفي (ط:1؛ دندرة: بيروت-لبنان، 1981م)، ص306.
2- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (دط؛ هنداوي: المملكة المتحدة، 2020م)، ص180.
3- المرجع نفسه. (بتصرف)
4-المرجع نفسه ، ص174.
5- أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية (دط؛ دار الكتب العلمية:بيروت-لبنان، 2001م)، ج4، ص349.

ويذكر الإمام أبو حامد الغزالي إجماع الأمة " على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض، وكيف يفرض مالا وجود له، وكيف يفسر الحب بالطاعة، والطاعة تبع الحب وثمرته، فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب"[1].

ومرجع ثبوت المحبة الإلهية النصوص الشرعية الكثيرة التي تدعو إلى محبة الله ورسوله، وتبين التفاوت الحاصل في تحقيقه، كقوله تعالى[:يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ][2]،وقوله: [وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبا لِلهِ][3]، وحديث النبيρ:(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ)[4]، وبهذا الحضور والوضوح في النصوص الشرعية ينتفي المجال للقول بأن نظرية الحب الإلهي نظرية ليست إسلامية، أو ألا سند لها من القرآن والحديث، وأنها أمر استحدث عند المسلمين الذين تأثروا بأصحاب الديانات الأخرى[5].

1- المحبة عند الصوفية ومقوماتها:

1-1- مفهوم المحبة عند الصوفية:

اختلف الصوفية كثيرا في وضع تعريف للمحبة وحدها، ومرجع ذلك أنها حال ذوقي يعسر ضبطه، مما جعل البعض يعرفه بحسب آثاره، قال ابن العربي في ذلك : "واختلف الناس في حدّه، فما رأيت أحدا حده بالحد الذاتي، بل لا يتصور ذلك، فما حده من حده إلا بنتائجه وآثاره ولوازمه، ولاسيما وقد اتصف به الجذاب العزيز، وهو الله Y"[6].

ويرى البعض أن خفاء معناها بسبب ما يرد على القلب فيقهره عن الإدراك على اللسان، فيعجزه عن العبارة، وبالتالي فلا توصف بوصف، ولا تحد بحد أوضح ولا أقرب من نفس اللفظ وصورته، وأن الحد يزيدها خفاء وجفاء، فحدها وجودها. وليس بالضرورة أن يستطيع الإنسان التأمل والنظر في العواطف الواردة على حياته الباطنية، لتنوعها وتنوع درجاتها من جهة محالها وثباتها ودوافعها، أو لسرعتها ودقتها وتركيزها، وفوت القدرة عن التعبير عنها[7].

ويرجع سمنون المُحب في هذه الحيرة إلى أن: "المحب لا يعبر عن الشيء إلا بما هو أرق منه، ولا شيء أرق من المحبَّة، فبم يُعَبر عنها"[8].

وممن حاول وضع تعريف للمحبة وضبط معناً يقاربها، الإمام الجنيد البغدادي بقوله:"دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب"[9]، وقال فيها أيضا الحسين بن منصور الحلاج: "المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك"[10].

1-2- أنواع المحبة ومرادفاتها:

1- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (دط؛ دار المعرفة: بيروت، دت)، ج4، ص294.
2- سورة المائدة: الآية 54.
3- سورة البقرة: الآية 165.
4- صحيح البخاري (15) .
5- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (مرجع سابق)، ص175.
6- ابن العربي، الرسائل الإلهية، تحقيق: قاسم محمد عباس (ط:1؛ دار المدى: سورية-دمشق، 2007م)، ص79.
7- عبد الله يوسف الشاذلي، التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة (دط؛ دد، دت) ، مج3، ص3-4(بتصرف: وهو معنى نقله المؤلف: عن أبو القاسم القشيري وابن القيم)
8- عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (دط؛ دار الكتب العلمية: لبنان-بيروت، 1998م)، ص160.
9- أبو نصر السراج، اللمع في التصوف، تحقيق: عبد الحليم محمود وعبد الباقي سرور (دط؛ دار الكتاب الحديث بمصر: القاهرة-مصر، 1960م)، ص87.
10- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، (دط؛ دار الكتب العلمية: بيروت-لبنان، 2001م)، ص352.

كما تعددت تعاريف المحبة عند الصوفية، نجد ذلك يمتد إلى معايير تقسيمها؛ وضبط حدود مرادفاتها كذلك، فقسمها بعضهم حسب أداة الإدراك إلى:

محبة النفس باعتبار الداعي لها هو اللذة الحسية المولدة للمحبة الطبيعية دون الروحية؛ ومحبة عقلية متولدة من النظر في نعم الله الظاهرة والباطنة وفي إحسانه وكرمه وعدله وجماله؛ ومحبة قلبية أخرى مصدرها مطالعة القلب صفات الحق التي هي مصدر كل جود وجمال، فيلوذ القلب بالمحبوب وحده دون ما سواه، فيتعلق به تعلقا مستغنيا عن الأغراض والمنافع؛ ثم تأتي بعد الأنواع الثلاثة الكسبية؛ محبة الروح وهي غاية الحب وذروته، وهي محبة إذا مازجت الروح طارت إلى محبوبها عملا ومطالعة وتشبها وتحققا بصفاته[1].

ويرى ابن العربي أن المحبة تطلق على أربعة ألقاب؛ أولها الحب: وهو خلوص القلب وتنقيته عن كدرات العوارض، فلا غرض له ولا إرادة مع محبوبه، وثانيها: الود ويتميز بالثبات، وسمي الودود لثبوته على الأرض، وثالثها: العشق وهو إفراط المحبة وهو لا يكون إلا لتجلي الاسم الجميل[2] ، وكني في القرآن بشدة الحب... والرابع هو الهوى، وهو استفراغ الإرادة في المحبوب، والتعلق به في أول ما يحصل في القلب[3].

1-3- مقومات المحبة عند الصوفية:

1-3-1- المحبة أصل الوجود:

يرى الصوفية أن الثراء في تمظهرات المحبة يعود في الحقيقة إلى كون المحبة هي سبب وجود العالم عند الصوفية، وهي ظاهرة –أي المحبة- لا تنفك عن كل موجود، ففي الحديث النبوي الصحيح -كشفا- عن رسول اللهρ عن ربه Y أنه قال: ما هذا معناه: «كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني» فلما ذكر المحبة، علمنا من حقيقة ... أن الحب لا يتعلق إلا بمعدوم يصح وجوده، وهو غير موجود في الحال، والعالم محدث، والله كان ولا شيء معه، فكان الحب أصل سبب وجود العالم"[4]، ولهذا سبح كل شيء بحمده، وشملت الرحمة كل مخلوق، فالمُحَبُ مرحوم للوازم المحبة ورسومها[5].

ومن هذا المنطلق أحب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، وبغض هلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله، وهي جبلة كل حي ولا يتصور أن ينفك عنها، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى، فأنه لا وجود للعبد من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله[6].

فكل المحبة في الوجود بكل مكوناته، ليست إلا انسجاما مع أصل خلقتها، فلم يُحَبَّ في الحقيقة إلا الله تعالى، قال ابن العربي: "فهو الظاهر في كل محبوب لعين كل محب، وما في الوجود إلا مُحَبٌ، فالعالم كله محب ومحبوب، وكل ذلك راجع إليه... ولكن احتجب عنه تعالى؛ بحب زينب وسعاد وهند وليلى، والدنيا والدرهم والجاه، وكل محبوب في العالم... فإن الحب سببه الجمال، وهو

1- عبد الله يوسف الشاذلي، التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ، (مرجع سابق) ، مج3، ص25-32.

2- ابن العربي، لوازم الحب الإلهي، تحقيق: موفق فوزي الجبر (ط:1، دار معد ودار النمير: دمشق-سورية، 1998م)، ص61.

3- ابن العربي، الرسائل الإلهية، تحقيق: قاسم محمد عباس (ط:1؛ دار المدى: سورية-دمشق، 2007م)، ص77.(بتصرف)

4- كلام ابن العربي؛ نقلا عن: محمود محمود الغراب، الحب والمحبة الإلهية من كلام الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي (ط:2؛ مطبعة الكاتب العربي: دمشق سوريا، 1983م)، ص12-13.

5- عبد الباقي مفتاح، حقائق الأسماء الحسنى وشرحها عند ابن العربي (ط؛1؛ عالم الكتب الحديث: إربد-الأردن، 2018م)، ص151. (بتصرف)

6- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (مرجع سابق)، ج4، ص301. (بتصرف)

له لأن الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال، فيحب نفسه، وسببه الآخر الإحسان وما ثم إحسان إلا من الله ولا محسن إلا الله فإن أحببت الإحسان فما أحببت إلا الله... فعلى كل وجه؛ ما متعلق المحبة إلا الله"[1].

1-3-2- المحبة وقوف عند التجلي:

يرى الصوفية أن الحب الإلهي في آثاره وعمقه يفني المخلوق عن ذاته مع بقاء ذات محبوبه، و"أن ذاته أصبحت عين ذات هذه المحبوبة فحسب، وإنما هو يتجاوز هذا الشعور إلى الجمع بين النظر إلى الذات الإلهية بعين الوحدة؛ والنظر إلى الأشياء الصادرة عن هذه الذات بعين التفرقة، وإلى أن كل ما في الكون من كائنات روحية ومادية ليس في الحقيقة غير مظاهر تتجلى على صفحتها الذات الإلهية، بما لها من صفات الجمال والجلال والكمال"[2].

ولما كان الإنسان يحب كل جميل لذات الجمال، وإن لم يصبه حظ من إدراكه[3]، وكان كل جمال مصدره الجميل المطلق، الذي هو "الواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، العالم الذي لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات والأرض"[4].

كان سبحانه وتعالى أحق بكل حب في الوجود. وفي هذا المعنى أنشد مولانا جلال الدين الرومي كلاما جميلا في ديوانه؛ يقول:

ولقد شهدت جماله في ذاتي ** لما صفت وتصقلت مرآتي
وتزينت بجماله وجلاله ** وكماله ووصاله خلواتي
أنواره قد أوقدت مصباحي** فتلألأت من ضوئه مشكاتي

1- ابن العربي، الفتوحات المكية ، مرجع سابق ، مج2، ص326.
2- محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي (ط:2؛ دار المعارف: القاهرة-مصر، 1985م)، ص278.
3- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (مرجع سابق)،ج4، ص303.
4- المرجع نفسه، ج4، ص305.

1-3-3- المحبة نَظَرٌ في الإنعام والإحسان:

لقد كان لوصف الخالق Y نفسه في كتابه بصفات الجمال؛ من الرحمة بعباده والمحبة لهم، والرأفة بهم، والغفران لخطاياهم؛ العامل البارز في ظهور تيار من الصوفية الذين اتخذوا من النظر إلى الجمال المطلق المنبث في سائر أنحاء الوجود؛ منطلقا للنظر إلى الخالق بنظر "المحبوب" الذي يجب أن يحيط به السالك نفسه، فيأنس إلى قربه ويسعد بمناجاته، ويستحضر في كل آثار فعله شواهد كرمه وأفضاله[1].

فالإنسان مجبول على محبة من أحسن إليه، فواساه بماله ولاطفه بكلامه، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه، فإنه محبوب لا محالة عنده؛ ثم محبة المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه، وهذا أيضاً موجود في الطباع، فنحب العادل الرفيق بالناس وننفر من الظالم المتكبر ولو لم يصلنا أثر فعلهما[2]، وكلا الجانبين من موجبات المحبة يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى، فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط[3]

وفي هذا الموجب للمحبة يقول صاحب الأمير عبد القادر الجزائري: "فما أحب محب إلا حضرة الجمال، ونعوت الأفضال، كالأنعام والأفضال، والرحمة والغفران، ونحو ذلك، وعند التحقيق؛ ما أحب محب إلا آثار صفات الجمال"[4].

1-4- المحبة طريق السالك وغايته:

إن الشوق إلى الحضرة الإلهية ذاتي للعارف، وهو وصف لازم تابع للمحبة، فإن الحب يتحكم بسلطانه في المحب[5]، وكلما كانت روح الإنسان أطهر وأصفى حنَّ الجوهر الناقص إلى الكمال[6].

وفي سير السالك إلى الله يعتبر الصوفية المحبة هي الغاية لكل المقامات؛ يقول الغزالي:"فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها؛ كالتوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر المقامات"[7].

فما من "خُلق يتحلى به الصوفي وينادي به إلا ويمت بصلة إلى ذلك الأصل الأول الذي هو المحبة الإلهية: وذلك أن جوهر المحبة الإيثار؛ إيثار المحبوب على كل ما عداه ومن عداه، وفي إيثار الصوفي لله، تتركز صفاته الأخلاقية كلها"[8].

ومن أسباب المحبة في هذا الجانب المشاكلة للمحبوب، وهو في قِبَلِ الخالق؛ تقرب العبد من ربه في الصفات التي أمر بالاقتداء والتخلق بها،"حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف، وإفاضة الخير والرحمة على الخلق، والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك[9]".

1- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (مرجع سابق)، ص174.
2- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (مرجع سابق)، ج4، ص303.
3- المرجع نفسه، ج4، ص301-302.
4- الأمير عبد القادر الحسني الجزائري، كتاب المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف (دط؛ دار الهدى: عين مليلة-الجزائر، 2005م)، ج1، ص171.
5- ابن العربي، لوازم الحب الإلهي، (مرجع سابق) ، ص56.
6- كبرى نجم الدين، فوائح الجمال وفواتح الجلال، تحقيق: يوسف زيدان (ط:1؛ دار سعاد الصباح: الكويت، 1993م)، ص169.
7- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (مرجع سابق)، ج4، ص294.
8- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (مرجع سابق)، ص207.
9- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين (مرجع سابق)، ج4، ص306.

فيكون سير المريد وسلوكه وحال الصوفي ومقامه، مستمدا من غائية المحبة في سلوكه، فينتقل من مقام إلى مقام بزاد من المحبة المثمرة للتزكية الشاملة لكل الصفات الخلقية الحميدة.

ويرى الصوفية أن من ابرز ما يختبر صدق السالك تحققا بالمحبة، امتثاله للشريعة وبلوغ مقاصدها ابتداء، وثم البلوغ إلى حال من الفناء عن الذات في المحبوب انتهاء.

1-4-1- المحبة تَقَيُّدٌ بالشريعة:

يقرر الصوفية أن المحبة الصادقة مفضية إلى الانقياد التام لإرادة المحبوب الشرعية، "فإن أجل ثمراتها وأقدس آثارها، إتباع المحبوب، وإنما يكون ذلك بتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه، وملاك ذلك الاهتداء بكتاب الله والتمسك بسنة رسول الله ، وصدق الله القائل: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ][1].

ومحبة الإنسان لله تتفاوت درجاتها، فكلما كانت محبة الله أقرب إلى الكمال، كان إتباعه لله ولرسوله أتم، فلا يقف عند الواجبات، بل يتجاوزها إلى المندوبات والكمالات، ولا يبالي أن يحمل نفسه في سبيل ذلك أنواع المشاق"[2].

والمحبة قائدة لامتثال الشريعة وثمرة من ثمرات ذلك الانقياد في المسارعة للطاعات والقربات، ففي الحديث النبوي-الذي لا يكاد يغفله الصوفية في باب المحبة-؛ «وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[3]، فيكون حال الولي بين شوق قائد للطاعات، وجزاء معجل بتحقق المحبة من المحبوب.

1-4-2- المحبة فَنَاءٌ عن الذات:

والحب الإلهي وآثاره في عمقه وسعته يفني المخلوق عن ذاته مع بقاء ذات محبوبه، حيث يرى الصوفية "بأن ذاته أصبحت عين ذات هذه المحبوبة فحسب، وإنما هو يتجاوز هذا الشعور إلى الجمع بين النظر إلى الذات الإلهية بعين الوحدة؛ والنظر إلى الأشياء الصادرة عن هذه الذات بعين التفرقة"[4].

ويذهب الإمام الجنيد أن الفناء هو نتيجة المحبة، وإن جوهر التصوف عنده :"هو الفناء عن الذات والبقاء بالله، أو هو الوصول إلى حال يكون فيها الحق سمع العبد وبصره على حد تعبير الحديث القدسي، وفي هذه الحال يصبح الوجود الذاتي المتعين وجودًا أتم وأكمل عن طريق البقاء بالله، وفي الله، ولكنها حال لا تدوم، فإن العبد يعود بعدها إلى حال من الصحو يشعر فيها باثنينية المحب والمحبوب، فيستأنف الحنين إلى محبوبه من جديد ويشتاق إلى الاتصال به... و الصوفي الفاني هو الصوفي المستغرق في حب الله. فبالحب الإلهي يحيا الصوفي، وفي تمام الحب وكماله يكرس حياته ومجاهداته، فإذا تحقق له ذلك قد وفىَّ الميثاق الذي قطعه على نفسه أمام الله في عالم

1- سورة أل عمران: الآية 31.
2- محمد سعيد رمضان البوطي، الحب في القرآن الكريم (دط؛ دار الفكر: دمشق، 2009م)، ص 55.
3- صحيح البخاري (الرقم6502).
4- محمد مصطفى حلمي، ابن الفارض والحب الإلهي (ط:2؛ دار المعارف: القاهرة-مصر، 1985م)، ص278.

الذر، وحَظِي بالاتصال به وبمشاهدته، وإذا انقطعت عنه مشاهدة محبوبه - وذلك في حال صحوه- اتجه إلى الآثار الجميلة في عالم الخلق فاستأنس بها "[1].

2- الأبعاد الإنسانية للمحبة عند الصوفية:

وللمحبة عند الصوفية أبعاد إجمالية وتفصيلية كثيرة، نكتفي بتناول موجز عن بعض أهم أبعادها:

2-1- البعد المعرفي والفكري:

إن قوام المحبة في الرؤية الكوينة الصوفية هو من يؤسس إلى النظر إلى كل موجود بعينها، تلك المحبة التي كانت سببا في ترجيح وجوده من عدمه، وهي محبة تدعو السالك إلى تلمس أثر المحبة في المخلوقات من جهة وجودها، فمحبة الخالق لها وحدها كفيلة بطلب تحقيق حبها من الصوفي، إذ محبة محبوب الحبيب تابعة لأصل المحبة الكلي له سبحانه وتعالى.

ومطلوب الصوفي تحقيق الكمال في محبة الخالق، فيحب الصوفي ذاته وأخاه المسلم، وكل بني الإنسان، بل وكل مخلوق لأنه محبوب الخالق سبحانه وتعالى من جهة الاستجابة لإرادته؛ في محبة الخالق، معرفةَ الخلق لألوهيته وربوبيته سبحانه.

ومن ثم كانت المعرفة أولى مقدمات الحب وأولى ثماره، فهي مقدمة من جهة أنه يستحيل أن تحقق محبة دون معرفة المرء من يحب، فالمحبة "ثمرة المعرفة؛ تنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها، ولذلك قال الحسن البصري:-رحمه الله تعالى- من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه"[2].

وبمقدار زيادة المعرفة يزداد الحب، وبمقدار الحب تزداد المعرفة من لدنهY، فيستحضر الصوفي الشق التفصيلي لطلب المعرفة به، من خلال النظر والتفكر في مختلف مظاهر التجلي الإلهي لصفات الجمال والجلال والكمال في الكائنات، فيغدوا كل مخلوق؛ بين فعل وانفعال مظهرا للقدرة والجمال الإلهي، فيزداد الصوفي معرفة وحبا لخالقه بما يرى من جمال متمظهر في تقلبات مخلوقاته، ذلك أن الصوفي يعلم أن في كل مظهر وجودي حكمة بالغة؛ أدركها أم لم يدركها، فيحب الخلق أيضا من جهة أنهم سبب في تحقيق إرادة الله وحكمته البالغة.

ثم إن المحبة السارية في روع الصوفي مؤدية إلى امتثال أمر ربه شريعة وحقيقة قرآنية، فيقدم الولي الصورة الوضيئة للدين والفهم السليم لأحكامه والتجسيد المقاصدي لآثاره، والعبودية الأكمل في مقامات الإحسان.

كل ذلك يثمر عند غيره من إخوانه في الدين معرفة واقتداء، وعند المخالف الملي معرفة صحيحة جديرة بالتلقي، فيتعرف غير المسلم على الشريعة من خلال رؤية تظهر جمالية ورحمانية الدين في أعمق صورها، فتكون هذه المعرفة مفتاحا لأفق استيعابي واسع، يمهد الطريق إلى التواصل الأتم المفضي إلى التعارف المأمور به قرآنيا؛ في قوله تعالى :[**يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**] [3].

1- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (مرجع سابق)، ص187. (نقلا عن: رسالة الفناء للجنيد "مخطوط").
2- أبو حامد الغزالي- محمد بن محمد الطوسي،إحياء علوم الدين (مرجع سابق)، ج4، ص301.
3- سورة الحجرات: الآية13.

فتكون المحبة منطلقا ومعبرا لمعرفة الخلائق لربها ومحبته، ومسارا للدلالة على وضاءة شريعته وجمال مبانيها ومقاصدها، وفضاء للإنسانية جميعا للتعارف والتواصل وما ينتج عنها من آثار تمتد إلى مختلف مناحي الحياة تزكية وإعمارا.

2-2- البعد الروحي والسلوكي:

إن أول ثمار المحبة عند الصوفي هي الإثمار من جنسها، فالمحبة لدى الصوفي غاية بحد ذاتها، بقطع النظر عن الآثار التي تحققها، وهي حق في عنقه تجاه ربه، الذي يقيم وجوده ويفيض عليه من جميل نعمه التي لا تحصى في كل حين، ذلك أن التسليم بكون المحبة وسيلة مؤدي إلى إمكان الاستغناء عنها حال وجود بديله، والحقيقة أن المحبة واجبة في حق الإنسان وأنها من مستلزمات العبودية[1].

ولأن جمال الخالق وإحسانه شامل لكل ما ظهر وتجلى من الممكنات، يرى الصوفية أن الكل مشترك في رحلة الشوق والحنين إلى أصله، والبوح بمكنون محبته؛ تماما كحنين الجذع –الذي يقف عليه رسول اللهρ- إلى ذكر ربه، وحنين الفرع إلى شجره، وقد عبر عن هذا العشق السامي صاحب المثنوي في قصيدة الناي بقوله: "استمع للناي كيف يقص حكايته، إنه يشكوا آلام الفراق، يقول: إنني منذ قطعت من منبت الغاب، والناس رجالا ونساء يبكون لبكائي، إنني أنشد صدرا مزقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق، فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله يظل يبحث عن زمن وصله"[2].

ثم أن قلبا سكنته المحبة للخالق، هو أهل لأن يشع ذلك الحب للمخلوقات، فيثمر في القلب رضا وغنى وشوقا، ويثمر على المستوى النفسي إشفاقا على كل نفس تنتمي إلى الله " بنسب العبودية له، فيحب لهم السعادة العاجلة والعقبى، والنجاة من غضب الله وعقابه، فالأصل في خلق المسلم أن يحب الناس جميعا، والكراهية عرض طارئ لأمر يستدعيها، وإذا بغض أو كره، فإنما يبغض ويكره الشر والباطل، وما ينبغي أن يتجه إلى الشخص من حيث ذاته، بل يتجه إلى المعصية التي تلبس بها ، أو الكفر الذي أصر عليه[3].

وكما تولد عن المحبة لله لدى الصوفي الإشفاق القلبي على الخلق، تثمر على المستوى السلوكي إيثارا للمحبوب على كل ما عداه ومن عداه، وفي إيثار الصوفي لله تتركز صفاته الأخلاقية كلها، فيؤثر على نفسه غيره من الناس، ويضحي بحقوقه من أجلهم ما دام في ذلك مرضاة لربه[4].

فيكون الصوفي في سلام الانسجام بين ظاهره وباطنه، فانيا عن نفسه، متجاوزا لأسوار ذاته، عاشقا لإطلاق محبوبه، مستسلما لأمر ربه، قائما بدوره الاستخلافي المنشود، في عمارة نفسه بتزكيتها، وعمارة الأرض بالانقياد فيها إلى أمر ربه.

2-3- البعد الاجتماعي:

1- محمد سعيد رمضان البوطي، الحب في القرآن الكريم (مرجع سابق)، ص 59-60.

2- جلال الدين الرومي، المثنوي، ترجمة: محمد عبد السلام كفافي (ط:1؛ المكتبة العصرية: صيدا بيروت-لبنان، 1966م)، ج1، ص73.

3- محمد سعيد رمضان البوطي، الحب في القرآن الكريم (مرجع سابق)، ص 58؛ وانظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها (ط:10؛ دار القلم: دمشق-سوريا،والدار الشامية: بيروت-لبنان، 2015م)، ج2، ص252. (بتصرف)

4- أبو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الإسلام (مرجع سابق)، ص207-208. (بتصرف)

يرى الصوفي أن رحلة الشوق والعشق التي تشترك فيها المجتمعات والبشرية جميعا من كل دين وطائفة، تدفعنا لتغيير أنفسنا وتدعونا إلى التجرد من اللون والعمر والجنس والماضي والمستقبل، أي أن الحب جامع لجميع الأجزاء المتفرقة، ويوحد قبلة التوجه، فليس ثمة إلا معبود واحد رغم اختلاف الطرق، فالمقصد واحدة[1].

هذه الرؤية الجامعة لتجليات الحق في الكائنات، والمستحضرة لشوق المخلوقات لأصلها وكمالها، والمؤسسة لرؤية الجمال المتفرق فيها، هي التي تثمر المحبة بين الأفراد والمجتمعات والشعوب، فكل محب ما أحب في الحقيقة إلا ربه، لهذا يرى بعض أهل التصوف أن المحبة دين يجمع ولا يفرق، قال محي الدين ابن العربي في هذا المعنى:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي *** إذا لم يكن ديني إلى دينه دانِ

أديــن بدين الحبّ أنى توجّهــت *** ركائبه فالحبّ ديـني وإيمانـــي[2].

وقال جلال الدين الرومي: "تعال وكلمني ولا يهم من أنت، ولا إلى أي طريقة تنتمي، ولا من هو أستاذك، تعالى لنتكلم عن الله".

إن الانطلاق من هذه الرؤية الجمالية العميقة، يجعل البشرية تؤسس للتركيز على مظاهر الجمال والكمال فيها، باعتبارها الدلالة عن بارئها، وباعتبار وحدة ماهيتها ووجودها، ووحدة مقصدها ومعشوقها، فيسود الحب كمؤسس للعلاقات الفردية والجماعية بين المجتمعات والدول، وما ينتج عن تلك المحبة تجسيد واقعي للقيم الإنسانية القائمة على التعارف والتعاون والتكافل والتآزر في مختلف الأحوال، حيث تعيش البشرية كلها في كنف الرحم الإنسانية التي أخبر عنها المصطفىρ : «النَّاسُ بنو آدمَ ، وآدمُ خُلِق من ترابٍ»[3].

أن البشرية اليوم وهي تعيش أجواء الحروب والصراعات والتنافس غير المشروع، والاستغلال والظلم والاعتداء على الحقوق المادية والمعنوية؛ في حاجة أكثر من أي وقت مضى، أن تؤسس للعيش في أمن وسلام وطمأنينة تسود قلوب الأفراد والمجتمعات، من خلال الانطلاق من المحبة الجامعة، والمولدة لكل قيم المشترك الإنساني، المحققة لكل صور التكريم في الحياة الإنسانية المادية والمعنوية، والمفضية إلى كل صور التعاون والتكافل والتسامح والسعادة للعالمين.

1- معمر قول، كتاب جماعي: المشترك الإنساني والتواصل الحضاري والديني، تنسيق: أحمد صالح الفراك وعبد الباسط محمد المستعين(دط؛ دار ركاز: أربد- الأردن، دت)، عنوان المقال: المحبة والعشق قاعدتا بناء المشترك الإنساني: أصولهما التأسيسية وأبعادهما الاستيعابية- قراءة في تراث مولانا جلال الدين الرومي، ص347.

2- محي الدين ابن العربي، ترجمان الأشواق (ط:1؛ دار المعرفة: بيروت-لبنان، 2005م)، ص62.

3- أخرجه الترمذي وقال: حديث إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

الخاتمة:

تخلص المداخلة في الأخير إلى جملة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- إن معراج المحبة الذي يتخذه الصوفي مسلكا يسير فيه ويدعو إليه، هو مرقى ينشد الكمال بطلب المحبوب، وهو مسار شريف يرتقي به عن جواذب المُكَوَنِ إلى المُكَوِنِ، ويحقق الغاية الوجودية من وجوده، ويستمد منها الزاد لامتثال أمر ربه وتحقيق ذاته.
- تؤسس المحبة عند الصوفية؛ إلى بناء المحبة للذات والغير، بل وللوجود كله، من جهة المحبة الإلهية التي أكرمتها بالوجود، ومن جهة دلالتها الجمالية والكمالية عن خالقها.
- إن منطلق المحبة يؤسس إلى بناء رؤية استيعابية شاملة، مفضية إلى جعل المودة مادة العلاقات البشرية على المستوى الفردي والجماعي. مما يساهم في إشاعة روح المحبة والطمأنينة والسعادة بين المجتمعات الإنسانية.
- إن المحبة عند الصوفية غاية ووسيلة ينتج عنها محبة الخلق، والإشفاق عليهم ومحبة الخير لهم في الدنيا والآخرة، وحسن الظن بهم، والأخذ بأسباب هدايتهم، وإيثارهم عن النفس لله من خلال الخلوص من أسوار الذات إلى مواطن رضوان المحبوب.
- إن البشرية اليوم في أحوج ما تكون إلى الاستفادة من التراث الصوفي في بناء جسور المشترك الإنساني، المفضي إلى التعارف والتفاهم والتعاون والتسامح، بدل التصارع والتحارب والتعدي والتجاذب في مختلف صوره المادية والمعنوية.